فيتيلوس

مدخل

قسم الكونت دي فوغ Vogue (في ملحق لعمله العظيم "كنائس الأرض المقدسة") أوصاف الأماكن المقدسة التي كتبت خلال العصور الوسطى إلى فئتين: الفئة الأولى وهي التي تضم ما يمكن أن يعد انطباعات شخصية، وهو ما يمكن أن ندرجه الآن تحت عنوان رحلات،وتضم الفئة الثانية مؤلفات مختصرة لمؤلفين مجهولين، يمكن أن ندرجها الآن تحت عنوان أدلة (ج. دليل)، وهي قد صممت لتزود الحجاج بالمعلومات التي يتطلبونها، أو لتساعد الذين لا يمكنهم الذهاب للحج، لتكون لديهم بعض الأفكار عن مشاهد الأرض المقدسة، وأشهر كتب الفئة الأولى كتاب أركولف Arcolfus ، الذي عدّ كتاباً معتمداً في بابه من الأيام التي كتب فيها (حوالي سنة ٦٧٠م) حتى حل محله كتب أخرى كتبت بأعداد كبيرة في أيام الحروب الصليبية، مثل كتب: سيولف Saewulf، وجون أوف وورزبيرغ Wurzburg ، وجون فوكاس، وولبراند فون أولدنبيرغ Wilbrand Vonoldenburg ، وتواريخ الأخبار العسكرية مثل كتب ألبرت دي أكس، وغيوبرت دي نوغت، ووليم الصوري، وفولتشر دي تشارترز، وجاك دي فيتري، الخ. وبالنسبة للفئة الثانية لدينا كثيراً مما يمثلها، وعندما تعقد مقارنة فيما بين الكتابات التي كتبت أيام الحروب الصليبية، أو بعدها، يتضح على الفور أنها جميعاً استقت إلى أبعد الحدود من مصدر عام، فقد جرى نقل وتكرار بعض النصوص كاملة من قبل واحد ثم آخر، فآخر، وتبين للكونت دي فوغ أثناء أبحاثه وجود نماذج عدة من هذه الأدلة، عدلت أو غيرت من قبل كتاب خاصين لتوائم العصر، مع أوضاع الكتاب نفسه، ولاثنين من هذه الفئة أهمية خاصة، وأول نموذج منها ممثل في الكتاب الذي هو قيد الترجمة، ويعود بتاريخه إلى بداية القرن الثاني عشر م، وهو يظهر أوضاع

البلاد عند بداية الحروب الصليبية، وصنف الآخر في حوالي سنة١١٨٧، وهو يشير إلى التغييرات التي أحدثها الاحتلال اللاتيني لمدينة القدس المقدسة (سوف تتم إن شاء الله ترجمة كل النماذج المتوفرة)، وصنف النموذج الأول باللاتينية، والنموذج الثاني هو نموذج نورماندي — فرنسي.

وأقدم نسخة لدليل من الفئة الأولى، مما أمكن للكونت دي فوغ أن يحصل عليه، قد كتب فيما بين سنوات ١١٥١ و ١١٥٧، وهو موجود في مخطوطة من مخطوطات المكتبة الوطنية في باريس (المكتبة الامبراطورية — المخطوطات اللاتينية رقم ١٢٩ , ٥)، وذلك في نهاية تاريخ الراهب روبرت، ويبدو أن هذا المجلد قد كتب فيما بين السنوات المتقدمة أعلاه، ذلك أن قائمة الأمراء التي فيه تتوقف عند البطريرك فولتشر (١١٤٦ — ١١٥٧م)، والملك بلدوين الثالث (١١٤٤ — ١١٦٢)، وكونت ريموند الثاني صاحب طرابلس (١١٥١ — ١١٨٧م)، ويبدو أن الرسالة ترقى إلى تاريخ أبكر من هذا، فهي متقدمة على بناء جوقة المرتلين في الضريح المقدس (القيامة)، وجاءت بعد وقت قصير من تأسيس أخوانية رهبان الداوية، والتاريخ الذي اختتمت به كما يبدو أصلاً وتوقفت عنده هو من عهد بلدوين الثاني (ربما سنة ١١٣١)، وأضيفت الإشارات إلى الملك فولك والملك بلدوين الثالث من قبل كاتب متأخر، وعلى هذا يمكن أن نفترض أن تاريخها هو حوالي سنة ١١٣٠، ومصنفها غير معروف كلياً، ومع أنها معروفة تحت اسم فيتيلوس، من المؤكد تماماً أنه لم يكن كاتبها، وارتبط اسم الرسالة باسمه فقط بسبب أنه تولى إخراج نسخة تولى هو تحريرها، والرسالة الأصل كانت معروفة قبله، وهذا يمكن استنتاجه من نصها، وفيتيلوس نفسه نعرف القليل عنه، ويكتب اسمه أحياناً "فريتيلوس Fretellus والشيء الوحيد المؤكد حوله أنه كان رئيس شمامسة في أنطاكية في حوالي سنة ١٢٠٠م، ولقد اختصر النص الأصيل

اختصاراً كبيراً في النسخة التي حررها، خاصة في وصف صحراء التيه، والأساطير، والتاريخ الطبيعي، وغير الأجزاء الواضح أنها ترقى إلى تاريخ أبكر، مثل ذكر بناء كنيسة في صور فهو قد أحل كلمة أسست محل كلمة تبنى، وأضاف بعض الخصوصيات الأخرى، ووصلتنا نسخ أخرى من الرسالة، فقد نشر ليون ألاتيوس Leon Allatius في سنة ١٦٥٣ كتاباً تحت اسم Eugesippus وهو وصف للأماكن المقدسة، وهو على الرغم من عدد من التصحيفات نص فيتيلوس نفسه، وهي حقيقة ذكرها م.دي فوغ، ليظهر السهولة الكبيرة التي نسبت بها هذه الرسالة إلى مؤلفين آخرين.

وفي التفاتة نحو الرسالة نفسها، نجد من الصعب قول كثير من الثناء على ترتيب موادها، وفي هذا المجال لا يختلف كاتبنا الذي لا نعرفه عن كثير من كتاب الحجاج، ويبدأ وصفه برواية عن مدينة القدس مع أماكنها المقدسة، والمواقع المقدسة في أحوازها، وأشار إلى مختلف البقاع في المدينة المقدسة، التي يتعامل معها غالبية الحجاج، ثم يأخذنا إلى بيت لحم استطراداً بشكل غريب وهو ما يزال يتحدث عن القدس وعن وادي يهو شافاط، وجبل الزيتون، ثم مرّ بشكل سريع إلى الأردن قرب أريحا، والبحر الميت، والخليل وأحوازها، ثم عاد إلى البحر الميت، ويأتي هنا على حديث طويل حول طريق الخروج، وفي أثنائه ذكر بعض الأساطير العجيبة، وقدم تفاسير غريبة حول أسماء المحطات في صحراء التيه، وجرى تبني هذه الشروح آنذاك للإثارة، وظلت هكذا حتى أوقات قريبة نسبياً، وبعد إكماله لهذه القائمة، والاشارة إلى بعض الأماكن التي كانت هامة في الأيام الأولى لاحتلال أرض الميعاد، نقلنا إلى دمشق، عاصمة سورية، ثم تابع نحو ينابيع الأردن، وأحوازها حتى بحيرة طبرية، والناصرة، وجبل الطور، والسامرة، وشكيم، والقدس، وجاءت إشارته هنا إلى المدينة المقدسة عابرة، حيث جاز من هذه المحطة إلى بيت لحم

والمناطق المجاورة لها، وعاد من الجنوب إلى القدس، وقدم رواية متخلفة نوعاً ما حول تاريخها، ووضعها الطبوغرافي، ووصف إلى بعض الحدود مواقعها المقدسة، وعبر من القدس نحو الشمال، غير أنه عاد ثانية إلى بعض المواقع الجنوبية حول الخليل، ثم أخذنا من هناك إلى أريحا، وذلك قبل أن يتابع سيره عبر اللد إلى الشاطىء، فسايره إلى قيسارية، وعكا، وصور، وصيدا، وبيروت، وبعيداً حتى طرابلس، وختم رسالته بتجديد الإشارة إلى القدس، وأولى ذكر برج داود اهتمامه بربطه باسم غود فري دي بويلون، وأقحم هنا الأسطر التي كتبت على قبره في كنيسة القيامة، وهذه هي الإشارة الوحيدة حول هذا النقش معروفة بالنسبة إلينا، وأتى على ذكر خلفاء غود فري في فقرة ختامية ذكر فيها رواية عن الملك بلدوين الأول، وقد حذفناها مجاراة لما قام به م. دي فوغ.

وتنبع الأهمية الرئيسية لهذه الرسالة المجهولة المؤلف — كما أشرنا من قبل — من أنها تقدم لنا وصفاً لأوضاع الأماكن المقدسة أيام بداية الحروب الصليبية، ففي الحديث عن كنيسة القيامة — على سبيل المثال — ذكر المؤلف أن مقر جوقة المرتلين كان قيد البناء، وكان الدخول إلى البناء المستدير ما يزال ممكناً عبر أربعة أبواب في الجهة الشرقية، وتبنى الرواة الذين جاءوا من بعده أوصافه ونقلوها خطوة خطوة، وهذا من الممكن رؤيته بمقارنة بعض الفقرات المتعلقة بوصف شمال فلسطين لدى ما جاء عند جون أوف وورزبيرغ (الذي ستأتي ترجمة نصه فيما بعد إن شاء الله)، والتشابه بين النصين كثيراً وقريباً، وليس من المفيد الإشارة إليه بالتفاصيل هنا في الحواشي.

واعتمدت الترجمة على النص الذي ألحقه م. دي فوغ بكتابه، الذي تقدمت الإشارة إليه، (كنائس الأرض المقدسة، تأليف الكونت مليكيور دي فوغ، باريس ١٨٦٠، ص ٤١٢ ـ ٤٣٣)، واعتمد في إخراجه لهذا النص على مخطوطتين من رسالة فيتيلوس، ترقيان إلى القرن الثالث عشر،

وذلك مع المخطوطة الأقدم التي تقدم ذكرها، وإحدى المخطوطتين موجودة في المكتبة الوطنية (الامبراطورية) في باريس، (F.de s.victor,no 574,Fo,172)، والأخرى موجودة في المكتبة الامبراطورية في فينا (مخطوط — مجموع رقم ٦٠٩)، وجرى في حالة أو حالتين إكمال وصف القدس من قبل الكونت دي فوغ، والاستعانة بكتاب غريب، وجده في المكتبة الوطنية (الامبراطورية) حوى رواية عن الحملة الصليبية الأولى، ووضع هذه الإضافات في الحواشي، وعلى العموم تمت ترجمة حواشي م. دي فوغ، وجرت الإفادة من نصوص الرحلات التي ستترجم، ومن كتاب لي سترانج «فلسطين في ظل الحكم الإسلامي».

هذا وجرى تزويد هذه الرسالة بمصور للقدس خلال القرن الثاني عشر، أيام جون وورزبيرغ وثيوديرك، أي بعد ثلاثين أو أربعين سنة من تاريخ تحرير رسالتنا الحالية.

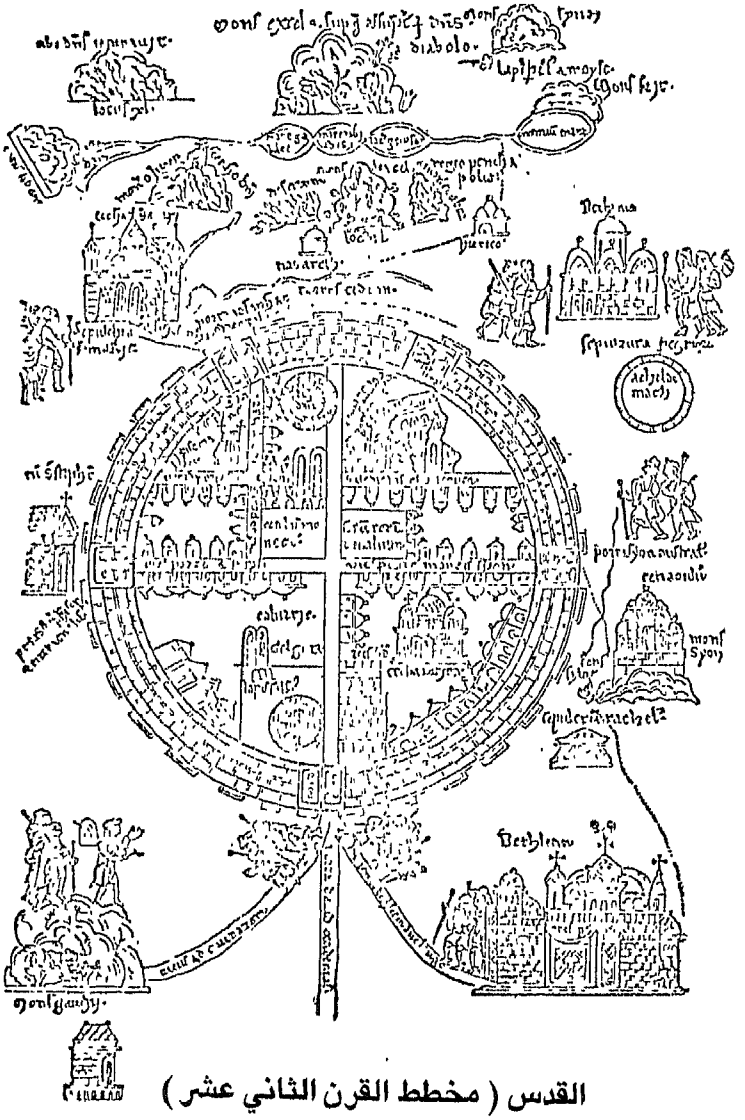

القدس (مخطط القرن الثاني عشر)

JERUSALEM (PLAN OF THE TWELFTH CENTURY).

- ١١٣٠ -

وضع مدينة القدس والأماكن المقدسة في داخل المدينة نفسها أو في أحوازها

مدينة القدس قائمة في المنطقة الهضبية ليهوذا، في بلاد فلسطين، ولها أربعة مداخل:في الشرق وفي الغرب، وفي الجنوب وفي الشمال.

ويقع في الشرق الباب الذي ينحدر الإنسان منه إلى وادي يهوشافاط، ويذهب الإنسان عبره إلى جبل الزيتون،وإلى نهر الأردن، ويقع في الغرب باب داود، الذي تواجه إطلالته البحر، ومن ثم عبر عسقلان، وفي الجنوب يقع الباب الذي يدعى باب صهيون، فعبره يخرج إلى مقربة القديسة مريم فوق جبل صهيون،وفي الشمال هناك الباب الذي يدعى باب القديس اسطفان، لأنه هناك رمي بالحجارة خارج المدينة، وهذا الباب نادراً ما يفتح، ذلك أننا دخلنا إلى المدينة المقدسة عبر باب داود، الموجود على يمين الداخل منه برج داود، وهو لم يكن بعيداً عنا عندما دخلنا، ويقع برج داود على الجانب الغربي، ويعلو بارتفاعه فوق المدينة كلها.

يقوم هيكل الرب على مسافة قريبة، ويواجه اتجاه شروق الشمس، في الجزء الأكثر انخفاضاً من المدينة فوق وادي يهوشافاط، وله أربعة أبواب: باب من الشرق، وباب من الغرب، وباب من الجنوب، وباب من الشمال، وأعلى نقطة فيه هي في صخرته في الوسط، حيث هناك مذبح، وهناك جرى تقديم الرب من قبل والديه وتسلمه القديس سمعان، وإلى هنا اعتاد أن يصعد عندما كان يتولى وعظ الناس.

ويقع ضريح الرب في أسفل المدينة، على يسارنا قليلاً ونحن ذاهبون إلى الهيكل، وكنيسة الضريح المقدس (القيامة) مستديرة الشكل، وبناؤها جميل، ولها أربعة أبواب، فتحتها مواجهة لاتجاه إشراق الشمس، وضريح

الرب قائم في وسطها، وهو محمي بما فيه الكفاية، ومزين بشكل معقول، وفي خارجها، في الجهة الشرقية هناك موقع الجمجمة، وهو المكان الذي صلب فيه الرب، ويصعد الإنسان هناك ست عشرة درجة حيث يجد صخرة عظيمة، فهناك أقيم صليب المسيح، وفي الأسفل الجلجلة، حيث انساب دم المسيح إلى الأسفل من خلال وسط الصخرة، ومقام هناك مذبح مكرس على اسم القديسة أم الرب، وخارج هذا، وعبره في مواجهة لإتجاه مشرق الشمس، يقوم المكان الذي وجدت فيه هيلانة المباركة الصليب المقدس، وهناك مبنى كنيسة واسعة، [يومىء هنا إلى شرفة جوقة المرتلين في القيامة التي كانت يومها قيد الإنشاء] وفي الجانب الآخر وعبره في مواجهة الساعة السادسة (أي الجنوب) هناك مشفى للفقراء والمعاقين، وكذلك كنيسة القديس يوحنا المعمدان، وبجوارها كنيسة القديسة مريم اللاتينية، ويوجد في الكنيسة المشار إليها أعلاه، أعنى كنيسة المبارك يوحنا إبريق من الحجر حول فيه الرب الماء إلى نبيذ.

وكما سلف بنا القول يتفوق هيكل الرب بجماله على جميع الكنائس، وهناك فيه أيضاً إبريق ماء مصنوع من الرخام، فيه حول أيضاً الماء إلى النبيذ في قانا الجليل، وأسفل الصخرة القائمة في وسط الهيكل، البقعة التي كان فيها مرة قدس الأقداس، وإليها ينزل الإنسان ببضع درجات، وهناك كان زكريا يصلي عندما أعلن له الملاك جبرائيل عن ولادة المبارك يوحنا المعمدان، وهناك أيضاً المكان الذي كان الرب جالساً فيه عندما جلب إليه الفريسيون المرأة التي أُمسكت وهي تزني، وعلى الجانب الأيمن أيضاً قصر سليمان [المسجد الأقصى]، وهناك مقابل اتجاه إشراق الشمس، إلى جانب القصر المذكور أعلاه، كنيسة القديسة مريم، حيث ينزل إليها الإنسان درجات كثيرة، فهناك مهد المخلص، وحمامه وفراش أمه، وعلى الطرف الأيسر (أي الشمال) للهيكل، فيما وراء الأسوار كنيسة القديسة حنة، أم أم المسيح، وفي الخارج قيل هناك بركة الغنم.

وليس بعيداً، خلف أسوار المدينة، إلى الجنوب هناك الكنيسة التي تدعى كنيسة مريم جبل صهيون (جامع النبي داود)، حيث غادرت المباركة جداً الجسد، وفيها مكان يدعى الجليلية، حيث ظهر المسيح بعد القيامة إلى حواريه، ووقتها لم يكن توما موجوداً هناك، وفي الكنيسة المتقدم ذكرها، في الشرق، يوجد المكان الذي ظهر فيه ثانية بعد ثمانية أيام، وكانت الأبواب مغلقة، ولقد ظهر لحواريه، ووقتها كان توما حاضراً وقال: «سلام لكم»، وأراهم يديه، وجنبه، ومنحهم أن يلمسوه، حسبما روى الانجيلي، وإلى الأعلى يصعد الإنسان بدرج إلى المكان الذي تعشى فيه مع حواريه، وفيه المائدة نفسها التي تعشى عليها، وهناك أعطاهم جسده ودمه للأكل في سبيل التحلل من الذنوب، وهناك أنارت روح القدس الحواريين في يوم عيد الحصاد، وعلى الطرف الأيسر هناك كنيسة القديس ستيفن، حيث دفن من قبل البطريرك يوحنا، بعدما جلب من كفر جمالا (بيت الجمال)، وأسفل قليلاً هناك جبل أكلداماك، أي حقل الدم، فهناك يدفن الغرباء، وعلى الطرف الآخر من الجبل، على منحدراته تقوم كنيسة القديس بطرس، حيث عندما صاح الديك بكى بحرقة لذنبه بالإنكار، وفي الأسفل أيضاً هناك نبع، يدعى بركة سباحة سلوان، حيث بناء على أمر من الرب، استرد الرجل الذي ولد أعمى بصره، ولا تمتلك مدينة القدس ماء للحياة غير هذا الماء.

وبيت لحم هي مدينة داود، وهي على بعد مرحلتين كبيرتين من القدس، في مقابل الساعة التاسعة (أي الجنوب الغربي)، وفيها كنيسة القديسة مريم، وهي مبنية بجمال معتبر، وفيها السرداب الذي حملت فيه العذراء مريم المباركة جداً بمخلص العالم، وفيه المزود الذي وضع فيه المسيح، وأمام السرداب مائدة رخامية أكلت عليها العذراء مع الملوك الثلاثة، وما يزال أمام ذلك السرداب البئر الذي فيه ماء بارد وحلو المذاق، وقد قيل فيه سقط النجم الذي قاد الحكماء الثلاثة إلى مدخل

ذلك السرداب، زد على هذا إن الذين يخرجون من الكنيسة يجدون قرب الباب سردابين آخرين، أحدهما أعلى من الآخر، ويرقد في السرداب العالي باولا المقدسة جداً، ويرقد عند قدميها ابنتها، أقصد العذراء المقدسة جداً،يوستوخيوم Eustochium ،وينزل الانسان الى السرداب المنخفض بوساطة كثير من الدرجات، وهناك الضريح الذي يرقد فيه الجسد المقدس لأرميا المبارك كثيراً،والطبيب المشهور،وهذه هي بيت لحم التي أيضاً أمر فيها هيرود بذبح الرضع بشكل وحشي.

وتقع الكنيسة التي تعرف باسم كنيسة القديسة مريم في وادي يهو شافاط،وتقوم في وسط الوادي بين القدس وجبل الزيتون،حيث يوجدضريح القديسة مريم أم الرب،فهناك قبر جسدها المقدس جداً،الرسول يوحنا المبارك،ويوجد خارج الكنيسة المكان المسمى جيسماني،حيث السرداب الذي خان فيه يهوذا الرب الى اليهود،وعلى بعد حوالي رمية حجر باتجاه اليمين مكان وحي حيث صلى لأبيه في ساعه آلامه، وصار عرقه مثل نقاط من الدم تتساقط نحو الأرض،وظهر له ملاك لطمأنته ومواساته،وعلى قمة ذلك الجبل مكان وحي، ومن هناك صعد الرب الى السماء،وبالجوار هناك كنيسة أخرى حيث عمل الرب الصلاة(الربانية)،والى جانبها بيت فاج،الذي كان فيما مضى قريه للكهنه،وعلى بعد ميل واحد في مواجهة الساعة الثالثة تقوم قرية بيت حنينا،حيث أقام المخلص لازاروس الميت،وهنا ضريحه وهنا أيضاً كنيسة مريم المجدلية،التي كانت فيما مضى بيت شمعون المجذوم،حيث أعفاها الرب من ذنوبها.

ونهر الأردن بعيد بعض الشيء عن القدس، وعلى حوالي العشرين ميلاً، والرحلة اليه متعبة بمافيه الكفاية،زد على هذا،تبعد مدينة أريحا مرحلتين عن الأردن،ويأتي الأردن الآن من الشمال،ويجري نحو الجنوب،والى جانب الأردن تقوم كنيسة القديس يوحنا المعمدان،حيث

يوجد فيها نحو عشرين راهباً أرثوذكسيا يعبدون الرب،وتقع العربية فيما وراء الأردن.

وليس بعيداً عن المكان الذي جرى تعميد الرب فيه يقع البحر الميت،حيث يصب نهر الأردن،وكان يوجد هنا أربعة مدن هي: سدوم،وعاموره،ودومه،وساعور،التي أهلكت بعدالة حكم الرب،ويعرف البحر الميت بهذا الاسم لأن مامن شيء يمكنه العيش فيه،ولايمكن للأسماك أن تسبح فيه أو تعيش،كمالايمكن لأي مخلوق الشرب منه، وإذا ماطار أي طائر فوق هذا البحر،ووقع فيه فإنه يموت،ويدعى هذا البحر أيضاً باسم نهر الشيطان، ويقع الجبل الذي صام فيه الرب أربعين يوماً وأربعين ليلة على مسافة ثلاثة أميال من أريحا.